السلسلة السمعية :
بصائر القرآن

باب الرحمة

الدكتور فريد الأنصاري
-رحمه الله-

تفريغ من إنجاز فريق بصائر بموقع الفطرية

WWW.ALFETRIA.COM

نَطرُق هذه الأمسية **باب الرحمة** مستبصرين بنور الرحمن الرحيم من قوله عز و جل :

"الحمد لله رب العالمين ۞ الرحمن الرحيم"

الرحمة أوسع الأبواب إلى الله وأسبقها إلى العباد

ذكرنا ما ذكرنا عن الحمد الذي نعبد الله به في صلواتنا و في خلواتنا، و وصف الله – سبحانه وتعالى – نفسه بصفتيه (الرحمان الرحيم) و هما اسمان من أسماء الله الحُسْنَى، و نوران من أنواره العُلَى (الرحمان الرحيم). و الرحمة هي باب الله الأول الذي من طرقه فُتِحَ له، و من أعرض عنه نُودِيَ عليه، ونُودِيَ عليه، ثم نُودِيَ عليه، ثم إذا لم يُصغ تُحُسِّرَ عليه، و لذلك جاء في كتاب الله "يا حسرة على العباد، ما ياتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون"(يس29). خلق الله – عز و جل – الخلق بالرحمة، و خلقهم للرحمة، و رزقهم بالرحمة، و هداهم إليه بالرحمة، و طلب منهم – جل جلاله – من علاه أن يعبدوه بالرحمة، حتى إذا ضلوا و كفروا ناداهم بالرحمة، و جدد عليهم النداء بالرحمة، و وسَّعَ عليهم أبواب الرحمة، عسى أن يتوبوا. و لم يجعل لإنسانٍ البتة اليأس من رحمته حتى يُغَرغرَ، أو تطلعَ الشمس من مغربها . فباب الرحمة هو أوسع الأبواب إلى الله – عز و جل – على الإطلاق، و قد صَحَّ الحديثُ عن النبي – عليه الصلاة والسلام – حكايةً عن ربه – ... في حديثٍ قدسي " و رحمتي سبقت غضبي "[1] رحمته سبحانه سابقةٌ غضبَه و عذابَه . و سَبْقُ الرحمة معناه أنها تسبق منه – عزَّ و جلَّ - إلى العباد، قبل أن يلحقَهم عذاب تسبق إليهم رحمتُه "و ما كنا معذبين حتى نبعَثَ رسولا " (الإسراء15). فالرسول هو الرحمة سابقٌ عن العذاب ، و المؤمن -كل مؤمن- شرد عن باب الله و عصى ربَّه، فإنه يلطِمُه سبحانه و تعالى، يلطِمُه بالرحمة. و قد ذكرْنا –قبلُ- كيف أن بعضَ العلماء مَثَّلَ للمصائب، التي تنزلُ بالعباد من المسلمين و من غيرهم، أنها أشبه ما تكون بالحجرة أو العصا التي يضربُ بها الراعي غنمَه، أو يُلقيها على الشاةِ الشاردة ، فتتألم لتنتبه حتى تعود إلى القطيع رحمةً بها أن يأكلها الذئب ؛ فكذلك المصائب التي تنزل بالمسلمين، و كذلك الآلام التي تنزل بهم في العالم أجمع : هي لطمات الرحمة.. لطمات .. و صفعات .. من الرحمن الرحيم – سبحانه و تعالى – و هو أرحم بعباده من كل رحمةٍ نتصورُها.

الإنسان مفعول به في المواجيد بما فيها مواجيد المحبة والرحمة

إننا أيها الإخوة الأفاضل كلما تدبرنا اسمَيْهِ الرحمن الرحيم كلما ازددنا محبةً لله . و المحبة لله – عزَّ و جل – هي الباب التي فتحها الله – عزَّ و جل – لعبادته، فتحها لخُلَّصِ العباد "إنه من عبادنا المخلصين" (يوسف 24) أي أنَّ الله أخلصَه إليه، و المؤمن ما يزال يُخلِص لله حتى يكونَ مُخْلَصًا ، والإخلاص لله – عزَّ و جل – لا يكون إلا بمحبته، و لا يجوز أن يقولَ أحدٌ :إني أحبُّ الله هكذا ... يعني : يَدَّعي و كلٌ يَدَّعي ما يشاء ، لو ذكر لي شخصٌ أنه يحب ابنه لسَهُلَ عليَّ التصديق لأن المحبة إحساس .. شعور، يقول لك: أنا أحب ولدي هذا بالذات، هذا صحيح في الغالب، لأن الفطرة البشرية مبنية على محبة الأطفال " زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين" (آل عمران 14). هل سألنا أنفسنا عن محبة الله عزَّ و جل؟ هل نجد المحبة في قلوبنا فعلاً ؟ هل نجدها ؟ -من الوُجد و الشعور و الإحساس - أم أننا ندَّعي ؟ أحسِبُ أنَّ مشكلتنا الكبرى هي أننا ندَّعي في هذا المقام... و الدليل على أننا إنما ندَّعي ...أفعالنا . المحب لربه لا يستطيع أن يجد نفسَه حيثُ ينهاه ، لم؟ يستحيي منه سبحانه قبل أن يخافه؛ حينما تكون العلاقة بين الأب و ابنه هي المحبة الحقيقية فإن الابن يستحيي من أبيه أكثرَ مما يخاف منه، و كذلك حينما تكون بين المُرَبِّي و مريدِهِ في المجال التربوي، فإن المريدَ أو التلميذ -سَمِّه ما شئت- يستحي من أن يراه مربيه في المكان الذي لا يليق، لم ؟ ... لأنه يحبُّه . إنَّ المؤمنَ يُطلَبُ منه أن يحبَّ ربَّه و ليس فقط أن يخافَه ، نعم الخوف مطلوب "وخافون إن كنتم مومنين"(آل عمران 175) و لكنا نخاف الله من حيث هو القهار، ومن حيث هو الجبار، و من حيث هو المتكبر، ذو الجبروت، ذو الطَّول، شديد العقاب، شديد العذاب، نخاف، لكن أسماء الله الحسنى الدالة على الرحمة سابقة، أنواره الرحمانية سابقة على أنواره الجبروتية، سابقةٌ إلى قلوبنا "رحمتي سبقت عذابي"، سبقت ، و مطلوبٌ من المؤمن أن يسعى ليطرق باب الرحمن الرحيم أولاً، و لذلك ما يزال العبد يسعى إلى ربه - كما قال ابن القيم – رحمه الله – كالطائر يطير بجناحين ؛ جناحه الأيمن حب الله، و جناحه الأيسر خوف الله، حتى إذا رأى ما يرى الذي يفارق الدنيا و يُقبل على الآخرة، غَلَّبَ جناحه الأيمن على جناحه الأيسر، و ظنَّ الخيرَ بالله، و ظنَّ الحسنى بالله، فغَلَّبَ الرجاءَ على الخوف، و غَلَّبَ المحبة .و الله – عزَّ و جل – يقول في القدسي من الحديث " أنا عند ظن عبدي بي"[2]

لكن هذا الظن كيف تستطيع أن تشعر به؟ لا يُتَكَلَّف، لا يمكن أن تقول أنا اليوم أريد أن أحب الله ، بل لابد من الإحساس بهذا الحب، المحبة ليست فعلاً من الأفعال، أن تقول سأؤديها هذا المساء، لو كانت المسألة تتعلق بركعتين أو صيام يومٍ لكان الأمر سهلاً ، تقول سأصوم غدا أو بعد غد أو كذا، أو أصلي ركعتين أو أقوم الليل هذا عمل، ولكن المحبة إحساس، والإحساس لا يكتسب، أي لا يتكلف، إنما يوهب، أي يعطى لك.

لا تستطيع إذا كنت حزيناً -عافاك الله من الحزن- أن تدخل السرور على نفسك بمحض جهدك، ما لم تأتك مواجيد السرور من عند الله، لا تستطيع. وكذلك إذا كنت مسرورا ليس ثمة ما يقنطك إلا إذا جاءك ذلك من عند الله ، لأن هذه الأمور لست أنت من تباشرها، إنما تساق لك، أنت مفعول بك في المشاعر ولست فاعلاً، ونسبة الفعل إلى الفاعل هاهنا مجاز، ليس بحقيقة، الحقائق تكون في الأفعال الكسبية: تقول مصل لأنك تصلي، صائم لأنك تصوم، تصوم فتصير صائما اسم فاعل، أنت فعلت الصوم، وكذلك فاسقٌ وكذلك مجرمٌ اسم فاعل لأنه هو اقترف الجريمة، فى الخير وفى الشر سواء؛ لكن فى الشعور والمواجيد يعني الأحاسيس الداخلية، الفاعل فيها مجاز، وهي كلمة تطلق لتسهيل التواصل اللغوي، وإلا فكل فاعل فى أمور المشاعر مفعولٌ به، شيءٌ ما سرك فصرت مسروراً ، وشيء ما حدث وأقنطك فصرت حزيناً، فالحزن فعلٌ وقع عليك، ولست أنت الذى توقعه، وكذلك السرور، وكذلك الخوف، الخوف لا تدري من أين ركبك، لا تدري مداخله إلى نفسك، لأنك لاتقرر ذلك ابتداء ، لا يمكن أن تقول هذا اليوم سأخاف من هذا الأمر، لا يمكن لا يقبله العقل ولا المنطق ولا الواقع، ولكن تفاجأ بنفسك خائفة، الخوف ركبك. كذلك الحب، أنت لاتأتي به ، بل هو يأتي بك، حينما قال الباري –تعالى- "والذين آمنوا أشد حبا لله" (البقرة 164)، فهو يعبر –سبحانه وتعالى- عن شيءٍ وجده المؤمنون حقاً وهو محبة الله... فكيف يدركون ذلك؟ إنما يدركه المؤمن بجلب أسبابه، بما أن هناك أشياء تقع فتجعلك خائفا حزينا،كذلك ثمة أشياء تقع فتجعلك تحب شيئاً. أسباب المحبة لله أن تتعرف على صفاته وأسمائه الحسنى، وعلى رأسها "الرحمن الرحيم " اسمان من أسماء المحبة سابقان على العذاب والغضب، نعوذ بالله من عذاب الله وغضبه .

إبصار أنوار الرحمة الموهوبة سبيل محبته سبحانه

قلنا إن الله ما خلق خلقاً، ولا رزق رزقاً، ولا فعل فعلاً في أصل الخلق والتدبير الكوني، إلا لأنه سبحانه وتعالى يحب عباده قبل أن يفسقوا، وقبل أن يفجروا، عسى أن يدركوا ذلك، فيحبوا ربهم كما أحبهم ربهم، حتى إذا تعرف الناس على ربهم من خلال أفعاله الحسنى، ينقسمون آنئذ قسمين: قسم يعرف الجميل ويرد الجميل ،يعرف الجميل لله، أنه سبقت إليه منه رحمته، ويرد الجميل بعبادة الله، وقسم آخر ينكر ويجحد، ولا يرد بل يرد بالعكس، وهذا هو الذي يستوجب عذاب الله ونقمته، ولكن قلنا قبل إن عذابه –جل وعلا سبحانه وتعالى- يمهل فيه عباده (إن الله يمهل ولا يهمل) يمهل أي يعطي فرصة عريضة للكافر وللفاسق وللشارد، وخلال هذه الفرصة التي هي العمر كاملا يرسل سبحانه رسائل الرحمة من الآيات المقروءة المنزلة من السماء، ومن الآيات المنظورة، ومن النوازل والحوادث التي تقع على الإنسان، وتقع حوله لو كان يبصر. كل ما يقع بجانبنا وفي محيطنا رسالة، ويجب أن نتساءل كل لحظة: ما معنى هذه الرسالة؟ المؤمن الذي يبصر "فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها"(الأنعام 105) الذي يبصر الحياة

حقيقة يدرك أن ليس ثمة أمر يقع عبثا أو بشكل عشوائي، أبداً ! الله عز وجل يدبر الكون بحكمة إذ من أسمائه الحسنى الحكيم، الفوضى في ملكوت ربي سبحانه لا وجود لها، في الكبائر من الأمور، وفي الدقائق الصغائر من الأمور، دل على ذلك "الرحمان الرحيم". الأمور الكبيرة يتصرف فيها الله عز وجل باسمه الرحمن، والأمور الصغيرة الدقيقة يتصرف فيها الله عز وجل باسمه الرحيم ماذا بقي بعد ذلك؟ لا شيء لا شيء ،كل شيءٍ أحاط به الله عز وجل رحمةً رحمة، لا وجود لشيء لم يسيره ربي بالرحمة –سبحانه وتعالى- ولكن مع الأسف يا حسرة على العباد الذين لا يبصرون هذه الحقائق، ويجب أن نتأكد، لأنه إذا رآها المؤمن ببصيرته، حتماً سيحب ربه، لأن المحبة لا تنبع إلا عن رؤية ومشاهدة "أن تعبد الله كأنك تراه"[3] ماذا ترى؟ ترى نور الله عز وجل يرعاك ويحيطك من علُو، ومن تحت، وعن يمين، وعن يسار، ومن أمام، ومن خلف، ومن داخل، كما في الحديث: "اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً ومن فوقي نوراً ومن تحتي نوراً وعن يميني نوراً وعن شمالي نوراً ومن أمامي نوراً اللهم أعطني نوراً"[4] يعني يصير المؤمن محاطا بالنور، نور الرحمة الإلهية الربانية، كل شيء -ذكرنا هذا مراراً، ونعيده الآن في الرحمة- كل شيء، في الكون إلا وهو شعاع من أنوار أسماء الله الحسنى، أسماء الله الحسنى أنوار، هي أسماء لله وصفات له في نفس الوقت، بها –سبحانه وتعالى – يمد الكائنات كلها بأسباب الوجود، وبأسباب الرزق، وبأسباب الرحمة، وبكل أسباب الحياة والموت والبعث إلى آخره، وجودنا وما يتعلق به من بدايته إلى نهايته، مكفولٌ بأسمائه الحسنى –سبحانه وتعالى- أي رزقٍ يأتي من غير اسمه الرَّزاق؟ وأي حياةٍ تأتي من غير اسمه الحي؟ كل شيء يأتينا من أسمائه الحسنى، أي من الله! –جل وعلا-، وأسماؤه: صفاته الدالة على كمال جلاله وعظمة سلطانه وتنزه جماله –سبحانه وتعالى- عن كل شيء.

من أراد أن يرى شيئاً من هذا فلينظر إلى الأم من كل شيء، من الإنسان، ومن الحيوان، ومن الطير، ومن الحوت، ومن كل شيء، الأم عند الناس هي أرحم شيء موجود، الرحمة الشديدة التي أوتيت ليست من تصرفها، إذ لا تصرف في الفطرة البشرية من قبل البشر -إطلاقاً-، كل تصرف في الفطرة البشرية موهوب من عند الله، الأم لا ترحم طفلها تكلفا أبدا، لا يمكن. قلنا الرحمة شعور لا يكتسب وإنما يوهب، يعطى من عند ربي –عز وجل-، فالله- سبحانه وتعالى – برحمته، أعطى للأم شعاعاً من أنوار رحمته حتى يصان الطفل من التعدي والأذى. الدجاجة التي هي أضعف الخلق، تصير سبعا، حين تكون حاضنة على البيض أو على الكتاكيت، بالرحمة الإلهية. وكذلك سائر الخلائق الضعيفة التي تأكلها الوحوش والسباع، حين تكون والدة، تتحول إلى قوة غريبة بالرحمة التي أوتيت على ولدها، ورضيعها، هذه الرحمة التي في الأمهات جميعاً، ليست لهن، ليست لهن، هي رحمةٌ عاريةٌ، مستسلفة، تماماً، -ولله المثل الأعلى - كالمرآة التي تعكس نور الشمس، على الأرض أو على العين ،فيقال أعمتني المرآة، والحق أن النور ضياء الشمس، والمرآة مستسلفته، ليس لها، بدليل أنها تحت جنح الظلام لا تعكس شيئا، ولله المثل الأعلى. كذلك الناس والخلائق في

الرحمة إن هي إلا مرايا تعكس الرحمة الحق التي تنزل من عند الله –عز وجل" -الرحمن الرحيم"، لا يمكن للوجود أن يستمر لحظة واحدة، لو غاب عنه اسم" الرحمن الرحيم"، لأن هذا الاسم مرتبط بأصل خلقتنا، ولذلك جاء الحمد سابقاً عليه، "الحمد لله رب العالمين " لم "الرحمان الرحيم"؟ مرة سيدنا محمد –عليه الصلاة والسلام- في معركة بدر، كان عدد الأسرى كبيرا، ورأى النبي –صلى الله عليه وسلم- مع الصحابة امرأة مع الكفار أسيرة، أسرت في المعركة ، رآها تبحث عن أطفال المشركين الصغار، وهم يكون الأسرى، فتلقم من وصلته منهم ثديها ، ترضعه وتهدئ من روعه، فتعجب الصحابة من عطفها على أطفال جنسها وقبيلتها، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن ينبههم إلى التوحيد، هذا التوحيد الحقيقي، ليس توحيد الكلام، بل توحيد الفعال والسلوك، النبي –صلى الله عليه وسلم- نبهم قال: للَّهُ، -الله عز وجل بالتوكيد- أرحم بعباده من تلك المرأة ؛ لأنه لو أراد الله –عز وجل أن ينزع الرحمة من قلبها لنزعها، وفي القرآن، في آية عجيبة، تُشَدُّ إليها الرحال يقول الله عز وجل: "واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه" (الأنفال24)، عجيب !! ربي عز وجل قادر، وهذا أمر واقع ، أن يفرق بين ابن آدم وقلبه، ما هو قلبه؟ عاطفته، وذلك هو أشد العذاب، لأننا نحيا حقيقة برحمة ربنا سبحانه، قد نسمع عن ابن آدم أنه ذبح ابنه أو أباه، فنصاب بالهول، لما؟ لأننا نقول هذا الجاني ليس في قلبه رحمة، ماذا حدث له؟ حيل بينه وبين قلبه، ربي فرق بينه وبين قلبه، فجعله أشد قسوة من الحديد، بحيث إنه لم يعد من حيث حقيقته بشرا، تحول من الطبيعة البشرية إلى طبيعة أخرى، "يحول بين المرء وقلبه"(الأنفال 24)، حتى يقسو الإنسان فتبلغ به القسوة أن يطلب الأذى لنفسه، كم واحدا تراه يتجرع السم، فتتساءل مستغربا: ما باله؟ هذا حيل بينه وبين قلبه، قلبه صار ضدا له، ولا يكون ذلك كذلك إلا في الحالات الغريبة، ولذلك كان من أشد الغرائب أن يعذب الله الإنسان بالحيلولة بينه وبين قلبه، ولكن متى؟ حينما يخاطبه ربنا جل وعلا مرارا بالرحمة، ولا يستجيب، يسلبه سبحانه الرحمة التي أودعها في فطرته، فيصير أشد من الوحش، وأسوأ الخلق على الإطلاق فيكون الإنسان آنئذٍ شراً كله، ليس فيه ذرة من خير، يصبح شراً كله، فلا يليق به إلا جهنم والعياذ بالله، نسأل الله العافية. الرحمات السارية في الكون الشاملة لجميع الخلق هي أشعة وأنوار، حين تتلقاها تصلك حتما بالمولى الكريم، وهذا الذي أريد لك أن تبصره، انظر إلى أحوال الرحمة السارية بين الناس وفى الناس، كيف يأكلون؟ كيف يُرزقون؟ كيف يعيشون؟ كيف يحيون؟ كيف يموتون؟ كيف يتدافنون؟ رحمات بعضها فوق بعض من الرحمن الرحيم، وابن آدم لا تصرف له في هذا كله، كما قلنا: نؤكد ونعيد، لا كسب لك في الرحمة أيها المؤمن، بل أيها الإنسان، لا كسب لك في الرحمة، لا تقل صنعت بيدي وعملت بمحض جهدي، في باب الرحمة، كل رحمةٍ صدرت منك أو وقعت عليك فهي هبةٌ من الله –عز وجل- إن أصابتك نفحاتها أو خرجت من عندك لا يعني ذلك أنها ملك لك، إنما هي هبة، هبة، لأنها حالة نفسية، وكما قال المربون الأوائل: " الأحوال مواهب"، حال تعتري الإنسان، الرحمة والأحوال مواهب توهب من الوهاب _سبحانه وتعالى- يهب عباده الخيرات والحسنات من الرحمات هبات، هذه الهبة الربانية الكريمة حين يتذوقها الإنسان

ويحس بها لا يجد إزاء ربه إلا المحبة، آنئذٍ يحس فعلاً أنه شعر بأنه يحب ربه وهذا هو الإيمان الحق، "والذين آمنوا أشد حبا لله" (البقرة 164)، الإيمان الحق أن تشعر فعلاً وتجد صدقاً أنك تحب ربك. صحابي جليل، استشهد في إحدى الغزوات، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، قال لأحد الصحابة الآخرين: "أبلغ عنى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- السلام وقل له إني أجد ريح الجنة" ، هذا صحابي قُتِلَ في الجهاد.. لم يسلم الروح إلى باريها بعد قال له: " سلم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وقل له إني أجد (أشم) رائحة الجنة، يعنى: حينما تشتم بحاستك السليمة رائحة الورد مثلا، يمنحك ذلك إحساسا معينا بالانشراح والفرح. حب الله عز وجل من هذا القبيل، إن كنت تحب الله حقاً فستجده في قلبك، لا أن تشمه بأنفك، ستجده في قلبك، لأن موطن المحبة قلب الإنسان: "والذين آمنوا أشد حبا لله" (البقرة 164)؛

نجوم محبته سبحانه في سماء رحمته

أ- الرضى عند الابتلاء

ولايمكن أن تعرف محبة الله إلا بتجربة، ومن رحمة الله –عز وجل- أن يدخلك أيها العبد في تجربة تجد فيها المشقة، ثم تجد فيها الرحمة، وتحس بجمال ذلك كله، كم درس لنا حب الوطن في المدارس، لكني لم أعرف حقيقته ما هو؟ حتى سافرت مرة خارج البلاد، فأصابني الغم والقنوط، وضاقت علي الأرض بما رحبت، فعرفت عند الرجوع حب الوطن ما هو؟ فعلا، بعض الأحيان المناهج سيئة في التبليغ، كارثة، بعض الأحيان تكون طرق التدريس كالأسلاك الصدئة، لا توصل الكهرباء الشعورية الوجودية للناس، هذا مجرد مثال لما يقع لنا جميعاً من هذه المعاني الجليلة في محبة الأشياء كذلك يقع في داخل الأسرة في محبة الإخوان والأخوات والآباء والأبناء والزوجات، في خضم التجربة القاسية تعرف القيمة القلبية الوجدانية إزاء أخيك، أو أمك أو أبيك، أو صاحبتك أو بنيك، حينما تكاد تفقد أحداً أو تفقده فعلاً، تجد كم أنت تحبه. وجب عليك أيها المؤمن أن تسير إلى ربك، لتجد محبته، ينبغي أن تتحرك في طريق الله عز وجل لتحمل رسالته، فإن كنت بعيدا لا تحمل شيئا لن تجد شيئا، لن تحس بتلك المحبة الحقيقية لله، وإذا لم تكن تشعر بها فإنها مشكلة وأي مشكلة؟؟، لأن الله يقول: "والذين آمنوا أشد حبا لله" (البقرة 164) أشد حباً لله؛"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" (آل عمران 31)، "رضي الله عنهم ورضوا عنه" (البينة 8)، الرضى: ما هو؟ محبة: وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلةٌ **** ولكن عين السخط تبدي المساويا

عين الرضى عين المحبة، فإذا رضيت الشيء ورضيت عنه فلا يكون ذلك إلا عن محبة، ولذلك من أبلغ التعبيرات عن محبة الله، أن تقول: "رضيت بالله رباً"، سيدنا محمد –عليه الصلاة والسلام- مرة غضب من بعض الصحابة، وقد ذكرنا من قبل قصة غضبه صلى الله عليه وسلم، حين كثرت عليه أسئلة الشطط،

نحو سؤال الأعرابي الذي تاهت عنه ناقته فقال :يا محمد أين ناقتى؟ فغضب النبى– عليه الصلاة والسلام- من هذا الأسلوب من السؤال الذى يثير السخرية والاستهزاء، فجعل يقول سلونى سلونى سلونى، فسأل سائل رسول الله، وقال يارسول الله أين مقامى؟ أي أين أكون يوم القيامة؟ قال له فى النار -نعوذ بالله- إلى آخر القصة، فقام عمر بن الخطاب –رضى الله عنه- وأحس بالخوف وهول الموقف وبرك على ركبتيه، وقال يارسول الله رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ورسولاً، الرضى، رضى القلب محبة، حين سمع النبي –صلى الله عليه وسلم- هذه الكلمات من سيدنا عمر، سكت عنه الغضب، كما سكت عن موسى، لأنها عبارة المحبة،وحين يشتد غضب المرء ، ثم يهدأ بتعابير المحبة، معنى ذلك أن عنصر الخير فيه، الله _عز وجل_ خاطبنا نحن عباده بالمحبة "وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب" (البقرة 185). هل ثمة رحمة كهذه الرحمة)؟ سبحان الله العظيم "أجيب دعوة الداعي إذا دعان) "البقرة/185).

ب-الصدق والذلة لله عند الدعاء

"إذا" أداة شرط، هو يطلب "إذا دعاني"، سلوا الله –عز وجل- أكثروا من الدعاء لا تفتروا عن دعاء الله وطلبه فإن الدعاء سببٌ من أسباب المحبة، لأنه حين تسأله، تطلبه، يعطيك ، إلاّ إذا كان الطلب طلب استهزاء أو سخرية أو شك في الله والعياذ بالله، أما طلب التائب وطلب الخاشع وطلب الباكي المذنب حال رجوعه إلى الله فهو طلبٌ لا يرد،"أجيب دعوة الداعي إذا دعان" (البقرة 185)، قال المفسرون ولو كان الداعى كافراً، إن سأل الله بصدق يعطيه، "أمن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض" (النمل 64)، - سبحانه وتعالى - . ومراراً وتكراراً وقعت في التاريخ القديم وفى التاريخ المعاصر الحديث أن الكفار طلبوا الله فأعطاهم في الشدة، الإنسان يخلص الدعاء إلى الله حين يكون في المآزق، لا يدعو حينها وثنا ولا حجرا ولا نصبا ولا أي شيء من أنواع الشركيات والبدعيات، حتى النصارى حينما يكونون في حال الضرورة يسألون الله الواحد سبحانه، وينسون الوسائط آنئذ، الذين جعلوهم شركاء لله، والذي يسأل الله عز وجل بصدق يعطيه، وكثير من قصص الذين أسلموا من النصارى خاصة يحكون مثل هذا بشكل عجيب، في تجاربهم الوجدانية الروحية، فكيف بنا نحن – المسلمين - الذين نعرف ما نعرف من قرآننا ومن ديننا، ننسى أننا نعبد الرحمن الرحيم، عجيب، صباح مساء نقرأ "الرحمن الرحيم" ، "الرحمن الرحيم" ، "الرحمن الرحيم"، كنوز الدنيا والآخرة مفتوحة بين يديك، كنوز الدنيا والآخرة كلها، احذر أن يغلبك الشيطان على قلبك، فيدب إليك الشك في رحمة الله. إبليس لعنه الله يتدرج مع ابن آدم، يقول أنا دعوت البارحة ...ولم ألق استجابة، هذه مصيبة، حذار، الله - عز وجل - قال لك" : أجيب دعوة الداعي إذا دعان" (البقرة 185)، الله – سبحانه وتعالى- لا يكذب عباده، بل يصدقهم فإذا قال ذلك كذلك، فهو كذلك، كل دعاءٍ ترفعه، لا ينزل أبداً ما دمت صادقاً. شرط واحد: كن صادقا في طلبك مع الله، لأن الطلب

ما معناه؟ الطلب أنك محتاج، الحديث الصحيح: "الدعاء هو العبادة " ويروى الدعاء مخ العبادة لكن الصيغة الصحيحة "الدعاء هو العبادة"، وهي أبلغ من صيغة مخ العبادة، لمه؟ لأنه حينما يقول النبي – صلى الله عليه وسلم- وهذه العبارة الأصح: "الدعاء هو العبادة" يعني أن العبادة كلها هي الدعاء العبادة: "ال" تفيد استغراق جنس فعل العبادة، كل العبادات، تلخص في الدعاء، لمه؟ لأن العبادة هي إعلان الخضوع وفعله، تعلن الخضوع لله بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، و تشرع في العمل بالخضوع لله: وهو الصلوات والزكوات والصيام والحج والعمرات وسائر أعمال البر وترك المنكرات، كل ذلك خضوع وعبودية لله، عَبَدَ يَعْبُدُ: أي: ذَلَّ يَذِلُّ وانقاد ينقاد، قد يكون الثور أو البقرة عظيمة الهيأة؛لكن يأتي طفل صغير يرعاها ويقودها ويسقيها، فتصير بين يديه بقرة ذلولا، ولذلك بقرة بنى إسرائيل قال عنها: "لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث"(البقرة 70) أي تنطح وتركل وتثير الأرض، لاخير فيها فاذبحوها، قالوا: "الآن جيت بالحق" (البقرة .(70 المؤمن فيه الخير، ذلول ولكن لله الواحد القهار وحده لا شريك له، فإذا كان معنى العبادة هو الذلة لله والخضوع لله فأبلغ ما يمثلها الدعاء، ما هو الدعاء؟ بالدارجة المغربية: هوالسعاية، أي سؤال الناس،هل ثمة قلب ذليل مثل قلب سائل الناس، لايحفظ لنفسه حرمة، ولذلك النبى – صلى الله عليه وسلم -حرم "السعاية"(أي سؤال الناس) إلاّ للمضطر حقا، لأن الذي يسأل الناس كمن يعبدهم، سؤال الناس عبادة، اسأل الله يعطك كما أعطاهم، من أسوء صفات الإنسان أن يسأل الناس،يعبدهم، هذا هو الدعاء "الدعاء هو العبادة"، المؤمن يسأل الله، يدعو الله "أجيب دعوة الداعي إذا دعان"(البقرة/185) والسؤال لايكون إلا عن حاجة، والذي يدعو دعاء حقيقيا محتاج، وهذه الحاجة التي تكون لدى الإنسان، والتي بها يدعو ربه، هي الإحساس الذي لا يجوز أن ننساه فى طلبنا للرحمة، لأن الرحمة واسعة، كل شيء أنت في حاجة إليه يطرق من باب الرحمة، دق الباب، تجده.

مواجيد الرحمة عند الابتلاء مسوقة للاستشفاء

وباب الرحمة واسع واسع لا حد له، رحمة ربي لا تنقضي، "ما عندكم ينفد"ينقضي "وما عند الله باق" (النحل 96)، (لا ينقضي). ورحمة ربى - سبحانه وتعالى- واسعة (لا تنتهي)، ولذلك كل شيءٍ أنت في حاجةٍ إليه، أيها العبد، من الأول إلى الآخر، من أمور الدنيا ومن أمور الآخرة، تجده فى باب الرحمة، دق الباب، باب الرحمة، تجده، لن ترجع إلا بوافر من رحمة الله _سبحانه وتعالى_ هذا الإحساس أيها المؤمنون لاينبغي أن يفارقنا ولو لحظة واحدة ، وحين تعيش به تعرف حقيقة ثمن الإيمان الذي لا يقدر، وثمن القرآن الذي لا يقدر وأن لا شيء يعدل إيمانك بالله ومحبتك لله وسيرك على هدىٍ إلى الله -عز وجل- الرحمة إذن في خاتمة الكلام هي كل ما نشاهد في حياتنا نحن المسلمين من الخير ومن الشر الذي هو ظاهرٌ، أما باطنه فهو الرحمة . المصائب التي تقع للأفراد وللجماعات وللمؤسسات، المشاكل كلها هي

لطمات كما ذكرنا من الرحمة الربانية توقظ الإنسان، توجع الإنسان، ولكن لتداويه وتشافيه وتقربه، ولذلك أي شيء في حياتك أيها العبد وجب أن تتقبله بالرضى، تتقبله بالرضى، بالمحبة يعنى ما أصابنا من الله فهو خير، لم؟ لأنك على يقين أن ربك لا يؤذيك هو "الرحمن الــرحيم"، ما خلقك إلا للرحمة وبالرحمة، وما دمت تؤمن بالله فاعلم أن الله –عز وجل- لن يأخذك إلا بالرحمة، أي لا يتعامل معك إلا بالرحمة، في كل أمورك، ولكن ينبغي عليك أن تفهم خطاب الله عز وجل، وتستجيب له، حتى يجد الدواء محله، ربنا سبحانه يعطينا أدوية من عنده تعالى، أدوية نتذوقها فنجدها حلوة حينا، مرة أحيانا أخرى، ولكن أين تكمن المشكلة؟ حينما لا نبصر ببصيرتنا أنها دواء فنبزقها، ولكن الحكيم منا يتذوق بعين البصيرة أنها دواء، وسبحان الله، بالتجربة تنقلب المرارة حال التداوي إلى حلاوة، وعدد من الناس يستحلون المرارة إن عرفوا أنها تنزل على جوفهم بالشفاء والعافية والدواء، فتتحول آنئذ الأذواق، المعاني لا تبقى في حدود اللسان، بل تجاوزوها إلى حدود الجنان، الذي هو القلب، فكذلك التعامل مع حياتنا، التي ذقناها حلوة في الظاهر، هي أيضا حلوة في الباطن-إن شاء الله- والتي ذقناها مرة في الظاهر، اصرف نظرك عن الظاهر، وتذوقها بالباطن بالقلب، تجد حلاوتها التى لم تبد لك، "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم"(البقرة 214)، "كل المؤمن أمره له خير إن أصابته سراء" هى الحلاوة" شكر" يقول الحمد لله على هذه الحلاوة، "فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " ، والصبر حلاوته غريبة، وهو نعمة لا يعطيها ربنا إلا لصاحب البلاء، ويحرم منها غيره، فالذي لم يبتل محروم من نعمة الصبر، ولذلك الصبر يتذوقه الأولون الأنبياء، الأنبياء، "فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل"(الأحقاف 35) لو كان الصبر مرا فعلاً كما يقول الناس، لم يعطه ربنا سبحانه للأنبياء، لكنه أعطاهم الصبر لأنه حلاوة حقا، ويجدون ذلك فى قلوبهم، لأنهم يشاهدون كؤوسه عسلاً من عسل الجنة، "فاصبر كما صبر أولو العزم مــن الرســل"(الأحقاف 35) كل ذلك يفسر لنا "الحمد لله رب العالمين * الرحمان الرحيم"، كل ما قرأتها أعدها وذق، ستجد الرحمة إن شاء الله، وتجد بعد ذلك أن قلبك خفق هذه المرة، وبدأ يضرب بمحبة الله، فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا لك من الشاكرين، اللهم ارزقنا حبك وحب رسولك وحب من يحبك من الصالحين، واجعلنا لك من الشاكرين، واجعلنا من التوابين، واجعلنا من المتطهرين، واغفر لنا أجمعين. اللهم يا أرحم الراحمين يا رب العالمين يا ربنا اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا، وأن نعمل صالحاً ترضاه، واجعلنا يا ربنا مهديين تائبين مستغفرين صوامين ذاكرين قوامين لك وحدك لا شريك لك، واسلك بنواصينا وبقلوبنا إلى عبادتك بهداك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1 - رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
2 - متفق عليه.
3 - متفق عليه. البخاري رقم 50 / مسلم رقم 8.
4 - رواه مسلم من حديث عبد الله بن عباس، رقم 763.
5 - متفق عليه: البخاري رقم : 5999؛ مسلم رقم : 2754؛ ونصه : "قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته ، فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم : (أترون هذه طارحة ولدها في النار) . قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها.
6 -رواه البخاري من حديث أنس بن مالك، حديث رقم : 4048، ونصه : أن عم أنس غاب عن بدر ، فقال: غبت عن أول قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، لئن أشهدني الله مع النبي صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أجد ، فلقي يوم أحد ، فهزم الناس ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقي سعد ابن معاذ ، فقال : أين يا سعد ، أني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة ، أو ببنانه ، وبه بضع وثمانون : طعنة وضربة سيف ورمية بسهم.
7 - متفق عليه، البخاري : 7294؛ مسلم : 2359. ونصه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر ، فلما سلم قام على المنبر ، فذكر الساعة ، وذكر أن بين يديها أمورا عظاما ، ثم قال : (من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا) . قال أنس : فأكثر الناس البكاء ، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : (سلوني) . فقال أنس : فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : (النار) . فقام عبد الله بن حذافة فقال : من أبي يا رسول الله ؟ قال : (أبوك حذافة) . قال : ثم أكثر أن يقول : (سلوني ، سلوني) . فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا . قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أولى ، والذي نفسي بيده ، لقد عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط ، وأنا أصلي ، فلم أر كاليوم في الخير والشر)". والحديث فيه روايات عدة، منها ماذُكِرَ فيه غضب النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما لم يُذكر.
8 - صححه الشيخ الألباني، وانظر صحيح الجامع رقم : 3407.

9 - رواه مسلم من حديث صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، حديث رقم2999 : ونصه : " عجبا لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر . فكان خيرا له . وإن أصابته ضراء صبر . فكان خيرا له."